التّنشئة الاجتماعيّة والتّعايش اللّغوي، أي علاقة؟
دراسة حالة التّعايش اللّغوي عند بني مزاب
Socialization and linguistic coexistence, what is a relationship?
A case study on the linguistic coexistence of the Mozabites

د. عمر داود*

تاريخ الاستلام: 2021.04.11 تاريخ القبـول: 2021.07.27

ملخّص: تقدّم هذه الورقة البحثية قراءة لواقعٍ جزائري، ولحالة تعايش لغوي لإحدى مكونات بنية المجتمع الجزائري وذلك بمحاولة تتبع مسار بني مزاب التاريخي بالعودة إلى مرحلة التأسيس وفهم السياقات الثقافية والعمليات الاجتماعية التي أسهمت في تشكيل هذا النموذج من التعايش اللّغوي، بهدف تسليط الضوء على هذه الحالة، والاستفادة من تجربتها الواقعية. وتمّ التوصل إلى انفتاح المزابيين على الثقافات، وتعايشهم اللّغوي بفضل مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأساسية وتعاملها مع ظاهرة التعدد اللّغوي، والاستثمار فيها، واستبعاد كلّ ما يُعتقد أنّه تناقض وصراع لغوي في الجزائر.

كلمات مفتاحية: التنشئة الاجتماعية؛ التعدد اللغوي؛ التعايش اللغوي؛ مزاب.

المحور الرابع: التعايش اللغوي بين العربية والفرنسية والمازيغية.

Abstract: This research document offers a reading of the Algerian reality, and of the state of linguistic coexistence of one of the components of Algerian society, and we have tried to follow the historical path of Beni M'zab by returning to step of the foundation to understand the cultural context and social processes that contributed to the formation of this model of linguistic coexistence.

The results of this research have reached the Mozabite openness to the cultures and languages that have achieved this linguistic coexistence, thanks to the basic socialization

* - جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر.

البريد الإلكتروني: o.daoud@hotmail.fr (المؤلف المرسل)

institutions and their relations with the phenomenon of multilingualism, the Mozabite investment in it and their exclusion of all linguistic conflicts in Algeria.

Keywords: Socialization; Multilingualism; Linguistic coexistence; M'zab.

1. مقدّمة: تظهر وحدة المجتمع الجزائري بكل أطيافه ومناطقه على المستوى الجغرافي والحضاري والهوياتي إذ احتك الجزائري بحضارات إنسانية متعاقبة، وتفاعل معها، وتعامل مع لغاتها المتناوبة كالليبية والفينيقية والبونيقية والآرامية والعبرية والعربية والتركية والإسبانية والفرنسية، وأكسب هذا التفاعل الجزائري هويةً وطنيةً بخصوصياتها المازيغية والعربية والإفريقية والمتوسطية، وواقعًا سوسيو-لسانيًا يتسم بالتّعدد اللغوي، وخريطةً لغويةً تقوم على لغاتٍ ولهجات مازيغية وعربية.

من هذا المنطلق يظل سؤال الواقع اللغوي الجزائري ملحًا وتتعاظم أهميته والبلد يمر بمرحلة عسيرة نحو التحوّل إلى التحضر والتمدن وتكريس روح المواطنة، لذلك تحاول هذه الورقة البحثية التساؤل عن دور المكوّن اللّغوي في تحقيق أو زعزعة استقرار المجتمعات من منظور سوسيو لساني، وتحاول استحضار علاقة التنشئة الاجتماعية بالتعايش اللّغوي في إحدى الجماعات المكونة للمجتمع الجزائري، وتتساءل عن دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية المزابية (الأسرة، والمدرسة والمحلات التجارية) في استيعاب أو رفض التعدد اللّغوي في الجزائر، وفي تحديد كيفية تعامل المزابيين مع اللغات واللهجات الأخرى المختلفة؟ وهل تمّ استيعاب هذا التعدد واُعتبر أمرًا طبيعيًا؟ أم رفضه المزابيون واعتبروه اختلالًا اجتماعيًا يسهم في تنامي الهويات الفرعية ويزيد من الاستقطابات الفئوية والجماعاتية والفئوية؟

ونفترض أنّ المزابيين وبفضل مؤسساتهم التنشئوية الأساسية يعتبرون التّعدد اللّغوي أمرًا طبيعيًا في كلّ المجتمعات الإنسانية، ويقدّمون بذلك نموذجًا واقعيًا عن التعايش اللّغوي في الجزائر.

ولتناول هذا الموضوع تمّ تحديد المفاهيم الأساسية كالتنشئة الاجتماعيّة، والتّعدد اللّغوي، والتّعايش اللّغوي قبل الخوض في التّعريف بالمجتمع المزابي ومسار تشكّله وثقافته ولغته، والوصول بعد ذلك إلى علاقة مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأساسية في مزاب بالتعايش اللّغوي.

وقد هدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على حالةٍ وطنيةٍ واقعيةٍ قد تصلح كي تكون بمثابة نواةٍ لمشروع تعايش لغويٍ منسجمٍ مع حاضره وماضيه، ومترفعٍ عن الاستغلال السّياسي والأيديولوجي.

2. مفاهيم أساسية:

1.2 التنشئة الاجتماعية:

التنشئة الاجتماعية هي عملية تشريب الفرد قيم ومعايير المجتمع الذي يعيش فيه[1]، فهي بذلك تقوم بتمرير ثقافة المجتمع إلى أفراده، وتهيئتهم للاندماج فيه، وعليه فالتنشئة الاجتماعية هي التي تصل الأجيال

بعضهم ببعض وتتم فيها عملية التعلّم الثقافي[2]؛ باكتساب الأفراد اللّغة وأنماط السلوك الأساسية، وتُنقل إليهم منظومات القيم والمعايير والمعتقدات والرموز، وتلقن التنشئة الاجتماعية الفرد أدواره الاجتماعية والسبل الكفيلة بأدائها وتجعله قادرًا على مسايرة ثقافة جماعته والتوافق والانسجام معها، وتكوّن لديه ضوابط داخلية توجه سلوكه وتحدده وتقيده.

وبالرغم من محاولات الاحتواء والتأثير التي تقوم بها الأسرة والمدرسة ومختلف المؤسسات التنشئوية الأخرى فلا يمكن تصور تلك الوضعية السلبية للفرد وانتظاره من يأمره ويوجهه ويبرمجه، بل إنّه يسعى من جهة أخرى إلى التكيّف مع الثقافات الأخرى، ومسايرة مستجدات الحياة والسياقات المتحولة التي تتيح المجال له كي ينمّي نفسه، ويُبدع، ويُطوّر طاقاته ويشكّل شخصيته المميّزة.

وهكذا تطورت الثقافات البشرية بنماذجها ورموزها ومعانيها ومعارفها وإبداعات الأفراد وانتقلت إلى الخلَف بفضل التنشئة الاجتماعية، وما تتيحه من إمكانيات التفاعل الاجتماعي الذي لم يكن ليحصل لولا تعلّم اللّغة ونقلها عبر الأجيال باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الثقافة، والثقافة بدون لغة هي ضربٌ من المحال[3]، وكلّما صارت الثقافة أكثر تعقيدًا ازدادت الحاجة إلى الاتصال والاستجابة للرموز، وابتكار رموزٍ جديدة تسهم في تطوير الإنسان للغته لغرض زيادة فعاليتها في نقل الأفكار، وبذلك تشكّلت المجموعات الصّوتية وتعددت اللّغات الإنسانية.

2.2 التّعدد اللّغوي: يشير هذا المفهوم إلى وجود مجموعة من اللّغات المتقاربة أو المتباينة في مجتمع واحد[4]، بحيث لا تتداخل كلمات هذه اللّغات فيما بينها أثناء الخطاب الواحد.

ونادرًا ما توجد مجموعات كلامية تتصف بأحادية قطبها اللّغوي، وقد حاولت بعض الجماعات سواء بشكل علني أم بشكلٍ خفي تحقيق سياسة لغوية هادفة لتأسيس مبدأ أحادية لغتها، إلاَّ أنّه من المرجح أن لا يتحقق ذلك دون أن يشكّل مزجًا وهجينًا لغويًا بأشكاله المعقدة والمتعدّدة.

وبالمنظور التاريخي، تعود ظاهرة التّعدد اللّغوي في المجتمعات إلى عدّة عوامل، منها العامل المتعلق بظاهرة الغزو والاستيلاء على بعض المناطق اللّغوية المختلفة، وفرض سياسة الوحدة اللّسانية بجعل جميع السكان يتداولون لغة الغازي، كما حدث في الجزائر إبان الغزو الفرنسي، وغالبًا ما يؤدي هذا الوضع الجديد إلى المقاومة الثقافية، ومع مرور الزمن واشتداد الممارسة التثاقفية العنيفة يتشكل تدريجيًا ذلك التعدد اللغوي، غير أن الأمر لا يحصل دومًا بنفس الوتيرة، لأن اللّغة الأصلية للسكان قد تعرف الاضمحلال كما حدث عندما أُلحقت مناطق البروتون والألزاس والبروفانس بفرنسا.

كما تقوم ظاهرة الهجرة بدور أساسي في تشكيل التّعددية اللّغوية، إذ عند تنقل الجماعات اللّغوية من حيز جغرافيٍ إلى حيزٍ آخر غالبًا ما تنصهر لغتها في لغة الجماعة المُستضِيفة، كما يمكن أن تسهم بعض

العوامل الأخرى في ذلك كوجود جوٍ اجتماعيٍ مشحونٍ يمنع أي شكل من أشكال القِران، فتحافظ بذلك كلّ مجموعة بذخيرتها اللّغوية حتى تتشكل التعددية اللّغوية، وبمرور الزمن قد تزول تلك العوامل ويحدث التفاعل الثقافي واللّغوي حتى تمتزج اللّغتان لتتشكل بعد ذلك اللّغة المشتركة.

وقد عمل الوجود العثماني في الجزائر على غرس قيمه وثقافته ولغته التركية في المؤسسات الإدارية والعسكرية بصفة خاصّة، ما جعل القنصل الأمريكي في الجزائر يعتبرها من بين اللّغات المتعددة للمجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي[5]، غير أنّها وكما يبدو لم ترق إلى مستوى الإنتاج الأدبي والفني الذي حققته اللّغة العربية، فتركت بعض ألفاظها تقتحم القاموس اللغوي الجزائري دون أن تحافظ على وجودها الكامل.

وبما أنّ للغة وظيفتي الاتصال والمشاركة، فهل من الممكن للمجتمعات المتعددة اللّغات أن تتعايش فيها هذه اللّغات لتحقيق الوظيفتين المذكورتين؟

3-2 التّعايش اللّغوي: تُشتق لفظة "تعايش" من فعل "عاش"، وكلمة "عيش" التي تحمل دلالة الوجود في المكان والزمان نفسه

والملاحظ أنّ تركيبة لفظة التعايش تبدأ بالتاء لتعطي لها معنى القبول والرغبة والإرادة في التفاعل بين المختلفين، ما يدّل على وجود الاعتراف المتبادل والانسجام والتلاحم والتكامل المقصود والاتفاق بينهم على عدم الاعتداء والعيش في ألفة ومودة[6]، مع محافظة كلّ طرفٍ على خصوصياته.

وإذا تمتّ إضافة عبارة اللّغة للفظة "التعايش" أصبح المفهوم من اختصاص الحقل المعرفي اللّغوي الذي يُنعت باللسانيات الاجتماعية، والتي تهتم بها السوسيولوجية اللّغوية على وجه الخصوص، وذلك بتبيان علاقة اللّغة المستعملة بالحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه في مختلف الظواهر اللغوية كالتباين اللّغوي، والتعايش اللّغوي...الخ.

ويُستعمل مفهوم التعايش أو المعايشة(Commensalism)في علم الاجتماع للدلالة على العلاقات المتبادلة والاشتراك معًا، وقد استعمله عالم الاجتماع الأمريكي سميلك(Smilk)في كتابة: علم الاجتماع الريفي (urban Sociology)مرادفًا لمعنى التكامل، وبيّن في تحليله للبناء الطبقي أنّ الأفراد المنتمين للطبقة نفسها يتعايشون معًا وتجمعهم علاقات الصداقة والأخوة والمودة[7]، وقد يبدو الأمر منطقيًا في هذه الحالة، غير أنّ الإشكال يُطرح بإلحاح في حالات الاختلاف الطبقي أو الفئوي أو الثقافي، بحيث تصبح اللّغة في الغالب أداةً تزيد بها الجماعات المختلفة من حشدها الأيديولوجي ومزايداتها واستقطاباتها السّياسية، وتحويل التّعدد اللّغوي إلى حقلٍ للصّدام والصّراع وإثبات الوجود كما كان حاصلًا إبان

الحقبة الاستعمارية في الجزائر، وما خلّفه الاحتلال من وضع لغوي مكّن وصف واقعه في الجزائر انطلاقًا من ثلاثة تصنيفات:

- اللّغة العربيّة المكتوبة والمسماة بالكلاسيكيّة أو الرّسميّة أو الفصحى؛
- اللغة الشفهية والمسماة باللّهجات، والتي نفضل تسميتها بلغاتٍ أمٍّ، وتقسّم بدورها إلى:

✓ اللهجات العربية: وتتصف بتنوعها، إذ يمكن التمييز بين اللهجات العربية الجزائرية القروية والحضرية والشرقية والغربية والعاصمية والصّحراوية...الخ، وبالرغم من اختلافها إلاّ أنّها تتيح لمتكلميها فرص التواصل والتفاهم فيما بينهم؛

✓ اللهجات المازيغية: ويمكن تصنيفها إلى مجموعات مازيغية: زناتة، وصنهاجة، ومصمودة أو كتامة[8] وتمثل هذه اللّهجات المازيغية بمختلف تنويعاتها لغة الجزائر الأصلية التي تمتد من العصر النوميدي إلى يومنا هذا؛ بحيث صمدت هذه اللهجات أمام التّحولات التّاريخية والثقافية واللّغوية التي عرفتها الجزائر ببقائها لغة التّعامل اليومي في عدّة مناطق من الوطن كالأوراس ومنطقة جرجرة والهقار ومزاب وتيبازة وبوسمغون...الخ، وتنوعت إلى لهجات: الشاوية والقبائلية والترقية والمزابية والشنوية والشلحية...الخ.

- اللّغة الفرنسية: والتي أدخلها المستعمر الفرنسي، ولا تزال تحتل مكانتها في السياق الراهن بالرغم من أنّها لم تعد من اللّغات الرّسمية في الجزائر المستقلة، إلاّ أنّها لا تزال سائدة في عدّة قطاعات حيوية كالقطاع الاقتصادي والقطاعات الإدارية الأكثر تقنية كالمالية وغيرها.

3. مزاب: المنطقة ومميزاتها: تضم منطقة مزاب القرى الخمس المشكّلة على ضفاف الوادي المسمى بوادي مزاب، ويُضاف إلى هذه القرى قريتي القرارة وبريان الموجودتين في الجهة الشمالية للوادي، وتقع منطقة مزاب في الجزء الشّمالي من الصّحراء الجزائريّة، ضمن حدود ولاية غرداية، وتبعد بمسافة 600 كلم عن العاصمة بين خطي عرض 15و31 شمال خط الاستواء، وخطي طول 2°و30° شرقًا، وترتفع عن مستوى سطح البحر في حدّها الأقصى بحوالي 780م في الجهة الشماليّة الشرقيّة بالقرب من ناحية بريان، ويتناقص هذا الارتفاع تدريجيًا حتى يبلغ في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة حوالي300م[9].

تتربع منطقة مزاب على مجموعة من الهضاب والتلال المستويّة تقريبًا والقليلة الارتفاع، وتخترقها الشعاب ومجاري الوديان، فتكوّن بذلك وحدةً طبيعةً شبيهة بشبكةٍ من الهضاب الصّخرية التي يصعب التنقل عبرها، ما يجعلها معزولةً عن النّشاط البشري المكثّف، وقد تكوّنت صخورها الرسوبيّة من طبقات كلسيّة أفقيّة رماديّة اللون يغلب عليها الكلس الدولوميتي الذي تشكّل في العصر الجيولوجي الثاني، وتحديدًا في العصر الطباشيري[10] بينما تميل الطبقات العلويّة منها إلى اللّون الأسود الممزوج باللّونيّن البنيّ والأصفر، وتختلط هذه الطبقات بالجبس المستعمل كمادة للبناء بالمنطقة[11].

وفي الزّمن الجيولوجي الرابع تعرّضت هضاب هذه المنطقة إلى عمليات التّعرية القويّة، نتيجة تسبب هبوب الرياح العاتيّة عليها، والتدفق القويّ للأنهار وسيلانها على سطوحها في ظهور أخاديد وروافد الوديان وشعابها ومن أهم هذه الوديان وادي مزاب[12] الذي يدخل المنطقة من الجهة الشماليّة الغربيّة ويتقاطع بعد ذلك مع وديان أخرى كواد توزوز، وواد أنتيسا، وواد أزويل، وواد نميرات، وواد نيمل...، ما يوّفر للمنطقة مياهًا جوفيّةً تشكّل جيبًا مائيًا يرتبط منسوبه بمدى وفرة تساقط الأمطار وقلّته[13].

وتمتاز منطقة مزاب بمناخها الجاف على غرار المناطق الصّحراويّة الأخرى، لذا فإنَّ تساقط الأمطار بها يكون شحيحًا وغير منتظم في أغلب فترات السنة، إذ لا يتجاوز معدلها 68 مم سنويًّا في الغالب[14]، وقد يزيد عن ذلك بقليل فيما يُعرف بالسنوات المُمطرة، ما يجعل سيلان الأودية بها حدثًا استثنائيًا، لا يقع إلاّ بالتهاطل القويّ للأمطار ولساعات متتاليّة.

وتهبّ على المنطقة رياح شماليّة غربيّة باردة محمّلة بالرطوبة في فصل الشتاء، بينما قد تعصف عليها الرياح الجنوبيّة الجافة في فصل الصيف، والتي تتسبب في ارتفاع درجات الحرارة بالمنطقة[15]، وغالبًا ما تشهد المنطقة على العموم هبوب زوابع رمليّة في شهريّ مارس وأفريل، وقد تستمر لعدّة أيام في المناطق الجنوبيّة منها على وجه الخصوص.

تتميز درجات الحرارة في مزاب بالتباعد النسبيّ للحديّن الحراريّن بين النهار والليل في فصليّ الشتاء والصيف، فتبلغ بذلك أدنى درجات الحرارة في الشتاء 01°C-، وتبدأ المرحلة الحارّة من شهر ماي لتستمر إلى غاية شهر سبتمبر وتبلغ فيها أعلى درجات الحرارة 47°C[(16)].

4. بنو مزاب: التميّز التاريخي واللّغوي: يبدو أنّ التميّز التّاريخي واللّغوي للجماعات البشرية بالصّحراء الجزائرية في عمومها مرتبطٌ بالتغيّرات الجغرافيّة والإيكولوجيّة التي حدثت فيها، ويعتقد شارل أندري جوليان (Charles-André Julien)أنّ جغرافيّة المنطقة ومناخها تميزا بالاستقرار منذ 3000 سنة على الأقل، ولم يطرأ أيّ تغيّر عليهما باستثناء ربما نسبة الرّطوبة التّي كانت أعلى نسبيًا على ما هي عليه اليوم بسبب تضاؤل النبات[17]، ويرى البعض الآخر أنّ الأشجار الغابيّة كانت تغطي المناطق الصّحراوية حتّى جبال الهقار والطاسيلي في الألفيّة الثالثة قبل الميلاد على أقل تقدير، ثم بدأ الجفاف ينتاب تدريجيًا تلّك المناطق[18].

كما اختلفت بعض الدراسات التاريخيّة والأثريّة في الإقرار بوجود استيطانٍ بشريٍّ بمنطقة مزاب في عصور ما قبل التاريخ، إذ يستبعد ذلك الباحث مارسيل مرسي(Marcel Mercier)لعدم وجود دلائل وقرائن ماديّة تدلّ على ذلك[19]، في حين توصّل بعد ذلك كلٌّ من الباحثين بيار روفو (Pierre Roffo) [20]، وجويل أبونو(Joël Abonneau)[21] إلى استخلاص نتائج تحمل دلالات قطعيّة على وجود نشاطٍ إنسانيٍّ في

فترة ما قبل التاريخ بهذه المنطقة، بعد عثورهما على عدد كبير من المخلّفات الأثريّة كالأدوات الحجريّة، والرسومات الحيوانيّة والهندسيّة المنقوشة على الصخور المتناثرة، والتي ترجع إلى العصور الحجريّة القديمة والوسطى والحديثة خاصّة، لأنّ من أهم مميّزات العصر الحجري الحديث في شمال إفريقيا وصحرائها انتقال الإنسان من حياة التّرحال والصيد والجمع، إلى الاستقرار النّسبي والارتباط بالأرض بمزاولة الرّعي والزراعة الموسميّة[22].

وهو ما يدّعم احتمال تشكّل معظم تلك المخلّفات الأثريّة في تلك الحقبة التّاريخيّة التي تميّزت ببدايات الاستقرار الإنساني في المنطقة، ولا تزال الكثير من تلك الرّسومات والخطوط موجودةً إلى يومنا هذا، وتظهر بشكل جلّي على مساحاتها صورٌ مختلفةٌ وحروفٌ ورموزٌ على غرار تلك النقوش الموجودة في كلٍّ من: منطقة لعذيرة ببوهراوة وبابا السعد بغرداية وقار الطعام، ومومو وأنتيسة ببني يزقن، وأوخيرة بالعطف، وعطفة الكتبة بضاية بن ضحوة، وسيدي مبارك ببريان...، إضافةً لمجموعات كبيرة من الأصداف المثقوبة التي كانت تُستعمل على ما يبدو للزّينة، والكثير من الأدوات الحجريّة المصقولة ذات الأشكال الهندسيّة المتنوعة والمنحوتة على شكل سهام وفؤوس والعصّي القاذفة (BOOMERANG)المتناثرة هنا وهناك، يقوم بعض شباب المنطقة بالتقاطها وجمعها.

وبالعودة إلى أندري جوليان نجده يتحدث عن وجود تجمعات سكنيّة كثيفة في تلك العصور على شكل قصور بها مجموعة من الأكواخ المربعة المبنيّة من الحجر والطّين الجاف، كما يشير إلى استغلال السّكان الكهوف والمغارات للاحتماء بها وجعلها ملاجئ ومساكن[23]، وهو ما يتفق تمامًا مع ما كان يُتداول قديمًا عن وجود ستّ مغارات وسراديب واسعة عند سفوح بعض جبال المنطقة، تمَّ دفن بعضها في وقت لاحقٍ خوفًا من التجاء العدّو إليها، وهو ما ورد في مخطوط الشيخ إبراهيم متياز حول تاريخ وادي مزاب[24]، ولا يزال البعض الآخر شاهدًا عليها، على غرار دهاليز ومغارات بنورة والعطف...، التي كانت تشكّل المأوى الآمن للإنسان في تلك العصور الغابرة.

أمّا في العهود اللاّحقة التي أعقبت ما يُسمى بفجر التّاريخ، وفترات الحكم الرومانيّ والوندالي والبيزنطيّ فتكاد تنعدم المصادر والمراجع التي تشير إلى منطقة مزاب وسكانها على حدّ اطلاعنا، لذلك فإنَّ هذا العصر يبدو ضائعًا في ظلمات الزّمن، ويشكّل تقطّعًا في المراحل التّاريخيّة للمنطقة لعُزلتها عن المراكز الحضارية حينها واعتمادًا على غابريال كامبس (GABRIEL CAMPS)فإنّ القبائل الجيتوليّة التي كانت منتشرةً في السّهوب امتدّ تواجدها إلى مناطق كثيرة من شمال الصّحراء، واستقر بعضها حينًا في حوافي الوديان التي تغمرها دوريًا الفيضانات وكانوا يُغامرون في زراعة شيءٍ من القمح والشعير، ويضطرون في أحيانٍ أخرى إلى ترك قراهم وقلاعهم وبساتينهم لرعي قطعانهم مع ترك ممتلكاتهم ومؤنهم في قراهم[25]، ما

يمكن أن يُدّعم احتمال استيطان بعضٍ من الجيتول ما يسمى ببلاد الشبكة أي منطقة مزاب، وما يزيد من تأييّد هذه الفكرة ما ذهب إليه غوتييه (GAUTIER)حينما اعتقد أنَّ بربر الشّمال لم يدخلوا إلى الصّحراء إلاَّ في وقت متأخّر عندما اشتدّ الضغط الرومانيّ عليهم في الشّمال وتطوّر تربيّة الجمال[26]، ما مكّنهم من الالتحاق بمناطق الجيتول، وكما تشير الحفريات LES FOSSILE إلى حياة مزارعين أكثر ممّا تشير إلى بدو ورحل، بمعنى أنّهم قد استطاعوا حينها تحويل المناطق القاحلة إلى واحات غُرست فيها النخيل والخضر والفواكه[27].

ومهما يكن من أمر فإنَّ منطقة مزاب قد كانت تمثل مركزًا هامًا لعبور قوافل القبائل البربرية والزناتيّة على وجه الخصوص[28]، وإنّ تماثل الخطوط والرّسومات المنتشرة في المنطقة، مع غيرها من الرسوم المتواجدة في مناطق شمال الصّحراء الجزائريّة، وحتى الطاسيلي والهقار وغيرهما، إضافةً إلى الدّلائل اللّسانيّة والممارسات الثقافيّة، يوحي بوجود نسقٍ موحّدٍ مرتبط بالظروف التّاريخيّة التي كانت سائدةً حينها، ومُعبّرةً عن بنيّة اجتماعيّة وثقافيّة مشتركة إلى حدٍ ما تثّمن الذاكرة الجماعيّة لسكان تلك المناطق.

وبالرغم من الاستقرار الذي فرضته الزراعة على سكان شمال الصّحراء عامّة على الأقل في القرن الخامس قبل الميلاد كما يذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوت[29]، فإن الترحال المستمر ظلّ ميزة أساسيّة لعدد كبير منهم، وهو ما لا ينفي تمامًا وجود تجمعات سكانيّة كثيرة لأحفاد الجيتول وبربر الشمال، الذين شكّلوا فروعًا من القبائل الزّناتيّة التي انضّمت إلى بني عمومتها وتوافدت في فترات تاريخيّة متعاقبة كانت تعيش على البساطة وِفق النمط البدويّ، فارتادت هذا المكان النائي واحتمت به، وبسكانه هروبًا من مراكز السُّلطات المتعاقبة بالشمال، وتجنبًا للالتزامات العسكريّة والماليّة، وقد تعلّمت تشيّيد القرى وتحصينها من النوميديّين[30].

وخلال تلك الفترة الغابرة، ولظروف تتعلق بالرُغبة في الاستقرار والاحتماء، اختار فرعٌ من فروع زناتة والمسمى بمصاب[31] الاستقرار بمنطقة مزاب لتشييد قراها وقصورها، فأسسوا قرى: العطف "تجنينت"، وبنورة "آت بنور"، وغرداية "تغردايت"، ومليكة "آت أمليشت"، وبني يزقن "آت يسجن"، والقرارة "إقرارن"، وبريان "آت إبرقان" بعد أن اكتسبوا خبرات أجدادهم، ونقلوا تجارب المناطق البربرية الأخرى التي كانوا يقطنونها.

واستمرت هجرة القبائل الزناتيّة من مختلف مناطق شمال إفريقية خاصّة الغربيّة منها كسلجماسة هروبًا من النّزاعات والحروب التي ميّزت تلك المناطق، كما أنّ بعض المغادرين لقصور توات نزل بقصور تيميمون وبعضهم الآخر واصل مساره إلى أن بلغ منطقة مزاب فاستقر بها وانضم إلى قبائل بني مصاب، ثم

تواصل النّزوح الجماعي إلى المنطقة خاصّة بعد رحيل الفاطميّن، وملاحقة بلقين بن زيري لزناتة وهوارة ونفزة في البوادي والصّحاري ومحاربته لهم بعد أن استولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاي[32]، وتعقب الموّحدين - بعد قيام دولتهم - للفرع الزنّاتي واضطهادهم لهم.

وهو ما يتوافق مع ما نقله لنا الشيخ متياز في مخطوطه، إذ اعتقد أنّ مصاب كانوا متحالفين مع إخوانهم من بني بادين في وجه كل معتدٍ يحاول تهديد استقرارهم، إلاّ أنّهم فشلوا في مقاومة قبائل كتامة وصنهاجة، فاضطروا إلى النّزوح نحو مناطق الشّمال الصّحراويّ[33]، ويذكر ابن خلدون في هذا الشأن أنَّ سكان "مصاب" من بني واسين الذين نزلوا فيها بعد أن اختطوها، تعود أصولهم إلى قبائل زناتة من شعوب بني بادين الذين تفرّعوا من أولاده الأربعة وهم: بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو زردال، وبنو مصاب[34]، والمقصود بكلمة بني مصاب هو بني مزاب، إذ غالبًا ما يُقلب حرف الصاد ويصبح زايًا مفخمًا عند بعض البربر، وأمثلة ذلك كثيرة[35]، وفي هذه الرّبوع الجرداء النائية وبين الجبال الصّخرية، شيّد المزابيون في صبرٍ وأناة قراهم وقصورهم[36]، فكانت بذلك الوّحدة المعنوية بين المزابيّن وحدةً اثنيّةً سابقةً للتّوطين ومستمرةً في تشكّيل التّكوّن والتميّز الاجتماعي وباعتناق المزابيين للمذهب الإباضي، وتأسيس ما يُعرف بحلقة العزّابة تغذّت هذه الوحدة بمضمونٍ مذهبيٍّ جديد دون أن يمسّ بعمقٍ بقيّة مقومات الهوّية المزابيّة، بل زاد من تدعيم عناصرها وتماسكها ورسم خطوط تميّز المنتسبين إليّها بشكّل جلّي وواضح، حتّى أصبحت السّلطة الجديدة -حلقة العزّابة- تمثل الوّحدة المذهبيّة والإثنيّة معًا، وزاد هذا الأمر من محافظة المزابيين على تميّزهم الثقافي واللّغوي.

اهتمت حلقة العزّابة منذ تأسيسها بالجوانب الروحية والتربوية للمزابيين، وأشرفت بذلك على النظام التعليمي الدّيني باللّغتين العربية والمزابية، وأسهمت في النشر المحدود للغة العربية بين الأوساط الشعبية باعتبارها اللّغة الرّسمية للتدريس.

وبعد الاحتلال الفرنسي لمنطقة مزاب تعرض السكان لركودٍ حضاري وتردٍّ أخلاقٍي وجهلٍ مطبقٍ لم يسبق له مثيل على غرار باقي مناطق الوطن، ما هيأ الوضع لظهور الحركة الوطنية الجزائرية وانخراط العديد من المزابيين فيها، وأسهموا في تأسيس الجمعيات الدّينية الإصلاحية بمزاب التي كان لها الفضل الكبير في المحافظة على التعليم القرآني والنشر الواسع للقراءة والكتابة باللّغة العربية كما سنراه لاحقًا.

5. مؤسسات التنشئة في مزاب والمسألة اللغوية: تُعتبر التنشئة الاجتماعية عملية طويلة ومستمرة ترافق الفرد طوال حياته، وتتكفل بها عدّة مؤسسات اجتماعية بدايةً بالأسرة ودور الحضانة ورياض الأطفال والمدرسة وجماعات الرفاق والمؤسسات الدينية والجمعيات المختلفة ووسائل الإعلام وغيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى، لذلك لا يمكن حصرها في حقبة زمنية دون أخرى غير أنّ هذه

التنشئة تكون أكثر فعالية وتأثيرا على سلوك الفرد في مرحلة طفولته، لذلك يتم التركيز أكثر على المؤسسات التنشئوية في هذه المرحلة كالأسرة والمدرسة، واعتبارًا لخصوصية النشاط الاقتصادي المزابي يمكن إضافة المحلات التجارية إليها لذلك سيتم التطرق إلى دور هذه المؤسسات الاجتماعية الثلاث في تكريس ظاهرة التعايش اللغوي عند المزابيين.

5. 1 التنشئة الأسرية: مما لا شك فيه أنّ الأسرة هي الخلية الأولى والوحدة الميكروسوسيولوجية والإطار الأساسي الذي يحدد سلوك الفرد وبفضل التنشئة الأسرية يتلقى الطفل نسقًا من القواعد ويستدمج قيم وسلوك وأفعال والديه وتمثله لشخصية أحدهما أو كليهما باعتبارها الشخصية الاجتماعية القاعدية، ويتعرف من خلالها على ميكانيزمات الضبط وقيم المجتمع ونظامه المسموح والمرغوب وسلوكه المستهجن والمنبوذ، فتقوم بذلك هذه التنشئة بإعادة إنتاج الأسرة والمجتمع بالقيم والتمثلات والمعايير نفسها التي ورثتها.

وتشكّل الأسرة المزابية الصورة النواة للمجتمع الذي توجد فيه، لأنّها حاضرة وبقوة وبكل ثقلها وموروثها وأعرافها وعاداتها وطقوسها ورموزها الثقافية في حياة المزابي لإعادة إنتاج المشترك الجمعي والخصوصية الثقافية ومسايرة النمو الطبيعي للمجتمع والمحافظة على ثوابت هويته.

وإن كانت اللّغة أداة للتواصل، فهي وسيلة للتعبير عن الوجود وتحديد البنية الرمزية للجماعة، وبفضل تمسك الأفراد بلغتهم الأم يحافظون على جزءٍ معتبرٍ من هويتهم الاجتماعية.

لذلك سعت الأسر المزابية إلى الحفاظ على لغة الأم، أي اللّهجة المازيغية المزابية، وممّا يُذكر أنّ المرأة المزابية كانت شديدة الحرص على تلقين الأبناء والبنات لهجتهم المزابية منذ أمدٍ بعيد، إذ أنّها لا تتحدث أمامهم إلاّ بها، كما كانت لا تتردد في تصحيح أي خطأ يحدث لأبنائها الصغار حين يتعلمون التواصل بها من باب: «لا تقل كذا، بل قل كذا»، وتعبّر بها عن مشاعرها ومخاوفها وأمنياتها، وغالبًا ما تُوظف القصص والأهازيج والأمثال والحكم والألغاز والأحاجي.

– **القصص:** وتروى هذه القصص "تِنْفَاسْ" الواقعية أو الخيالية منها خلال سهرات السّمر حينما تغزل الأم الصّوف أو تقوم بأي عمل آخر أمام الموقد ويتجمع الأطفال حولها، أو حينما تشتغل رفقة قريباتها أو بناتها بواجباتها المنزلية أو أشغال النّسيج، وتحاول من خلال القصص تنشئتهن، وذلك بتمرير مختلف القيم كقيم الصّبر والطّاعة والأمانة والصّدق والإخلاص وإتقان العمل وطلب الرزق الحلال...الخ.

– **الأهازيج:** يمتلك المزابيون رصيدًا ثريًا من الأهازيج باللّهجة المازيغية المزابية، ويرددونها أثناء قيامهم بالعمل الجماعي كجني تمور نخيلهم وجمعها، وعمليات الحصاد قديمًا، وفي مختلف المناسبات

الاجتماعية والدّينية، كما ترافق هذه الأهازيج النساء أثناء ممارسة العمل الجماعي كصبغ الصّوف وغسله، فتُسلي بها المرأة المزابية نفسها، وتنسيها همومها، وتؤنس بها وحشتها بغياب زوجها، وتقوّي بها عزيمتها لتحقيق أمنياتها، وقد نقلت إلينا الباحثة أميلي ماري قواشون في كتابها: "الحياة النّسوية في مزاب" الصادر سنة1927 مجموعة معتبرة من تلك الأهازيج[37]، ولا يزال قسم كبير منها متداولًا إلى يومنا هذا، وبترديد مثل هذه الأهازيج في مختلف المناسبات العائلية تقوم الأسرة المزابية بدور فعّال -قد لا يكون مقصودًا- في نقل اللّهجة المازيغية المزابية عبر الأجيال، والإسهام في الحفاظ عليها، وتنشئة أبنائها وضمان استمرارية كينونتهم الاجتماعية.

- **الأمثال والحكم والأحاجي والألغاز:** تتنوع الأمثال والحكم وتتعدد مواضيعها وتلامس المعيش اليومي للفرد المزابي فتقتحم حقله التجاري والفلاحي والأسري وعلاقاته الاجتماعية وتصرّح بوضوح عن السلوك المسموح به والمرغوب فيه، وتخاطب به كلّ الفئات العمرية، كما تُعتبر جزءا من الثقافة الشعبية المزابية التي تنتقل عبر الأجيال بالمشافهة،

- وتُعبّر عن المنظومة الرّمزية لهذا المجتمع وقيمه ومعاييره، وبتمريرها تقوم الأسرة بدورها في عملية التنشئة الاجتماعية لذلك فإنّ الفرد المزابي سواءا كان رجلًا أم امرأة غالبًا ما يستشهد بمجموعة من الأمثال والحكم المزابية في حديثه ومحاولات إقناعه الطرف الآخر بصحة رأيه، وصواب سلوكه، وتُصرّ المرأة في وسطها الأسري على تلقين هذه الأمثال والحكم باللهجة المازيغية المزابية لأطفالها بغية تنشئتهم وفق ثقافة المجتمع وشخصيته القاعدية من جهة، والمحافظة على هذه اللهجة باعتبارها مقومًا أساسيًا من مقومات هوية مجتمعها.

في حين تُعتبر الألغاز بالمزابية من الفنون الأدبية الرائجة بين الشباب المزابي، فيحاول كلّ واحد منهم تعجيز الآخر في فك شفرات لغزٍ من الألغاز، وتشتد أحيانًا المنافسة في جوٍ مفعمٍ بالسرور والمرح.

وغالبًا ما يلجأ أفراد الأسرة إلى تبادل الألغاز في فترات المسامرة الليلية، وتبدأ الألغاز المزابية غالبًا بعبارة: "أزق إباتا" بمعنى: "تكهن ما معنى" ويُذكر بعد هذه العبارة نص اللّغز، ويتنافس الجميع في محاولة إيجاد الحل.

وتشبه الأحاجي المزابية "أَلّاون" أو "إلّون" ما يُعرف بالبوقالات عند سكان العاصمة، وتُمارس في المناسبات العائلية والدينية وغالبًا ما تحضر في السهرات الرمضانية، وتتخصص بعض السيدات والعجائز في تسييرها بحيث تبرعن بأسلوبهن الشيق والجذّاب في سردها وتزداد مستويات جلب الاهتمام بتوظيفهن لروائع الأمثال والحكم والأدعية باللهجة المازيغية المزابية، ويُعتقد أنّ ما تذكره بعضهن من

آمال وفال حسن قد يتحقق على أرض الواقع مستقبلًا، فيصدق بذلك حدسها، وتنصت إلى كلامها كل النساء المشاركات والحاضرات على حدٍ سواء، وما من شأن ذلك إلاّ أن يمرر القيم التي يحملها حديثها للمتلقيات وتُغرس في نفوسهن، وتُلقن بفضلها مجمل القواعد السلوكية، وتُكتسب الأنماط التفاعلية عن طريق التقمص والمحاكاة، وتسهم الأحاجي في استمرارية التواصل بلسان المجتمع المزابي، وتضمن له عدم الاندثار والزوال أو الاختراق.

وهو ما لا يعني أنّ المزابيين قد حرصوا حرصًا شديدًا على نقاء لسانهم، وتمكنوا من منع المفردات الأجنبية الولوج إلى قاموسهم اللغوي التداولي؛ بل أنّهم قد أسهموا في إضافة العديد من المفردات العربية إلى لسانهم وانسجمت معه حتى صارت جزءًا منه، كالصلاة "تزاليت"، والصوم "أزومي"، ولفظة مبارك "أمبارش"...الخ[38] كما أنّ هذا التعايش اللّغوي والثقافي قد يظهر بشكلٍ جليٍ في ظاهرة تسمية الأبناء؛ بحيث تتعدد مرجعيتها وتنحدر من ثقافات وطنية مختلفة، ويزخر بذلك مزاب بأسماء أبطال الإسلام، والوطن ومن مختلف الجهات والمناطق.

5. 2 التنشئة في المدارس القرآنية: لقد كان دور حلقة العزّابة في مزاب مقتصرًا على التعليم ونشر الإسلام، فاهتمت بالتعليم القرآني منذ نشأتها وتفرعت منها جماعة "إروان" أي طلبة العلم على يد شيخ الحلقة، الذي يبدأ بتعليمهم اللّغة العربية وعلومها، ويفقههم بعد ذلك في الدين، ويُخصص لهم مكانًا مميّزًا في المسجد تقديرًا لما يحملونه من علم، ويساعد شيخ الحلقة أعوانٌ يسمون بعرفاء تحفيظ القرآن، وعرفاء تنظيم أوقات الدراسة...الخ، ويتم التدريس باللّغة العربية الفصحى، ويحرص المعلم والمتعلم على عدم الحديث بغيرها في المحضرة أو في حلق العلم بالمسجد، ونجاح الطالب يجعله يرتقي إلى مصاف طلبة فنون العلم، ويجتمع هؤلاء دوريًا للبحث والمذاكرة والمناظرة، وحين يحضر الشيخ يناقشوه في بعض المسائل، ويُشترط على السائل أن يكون أفصح الطلبة لسانًا وأكثرهم بيانًا[39] فكان إتقان اللغة العربية وقواعدها معيارًا مهمًا لتحديد مستوى كلّ طالب علم في مزاب حينها.

وبحلول القرن العشرين شهد العالم الإسلامي والعربي حركات النهضة الإصلاحية، وبوصولها إلى مزاب تحولّت هذه النّهضة إلى حركةٍ تحاول أن تكيف مشروعها وفق الخصوصيات المجتمعية، وتجسده ميدانيًا متأثرةً بما كان يحدث حينها في العالم الإسلامي، ومحاوِلة الاستفادة من التّجربة التّونسية بما فيها إسهامات الشيخ الثعالبي في مجال التّربية والتّعليم بإرسال بعثات علمية إلى تونس بغية التكوّن في المجال الإصلاحي، وكان مقصدهم جامع الزيتونة، ومعهد الخلدونية[40].

وأسهمت هذه الحركة الإصلاحية في تجنيد الأفراد للمشاركة في محاربة الجمود الفكري، ومناهضة الاستعمار الفرنسي، مركزةً على منابر المساجد وقاعات التدريس، ومقالات الصّحف[41]، حتى أدّت بعض

شخصياتها المحلية أدوارًا قيادية في الحركة النّهضوية والوطنية الجزائرية، واتسعت نشاطاتهم العلمية والسّياسية لتشمل العالم العربي والإسلامي[42]، وبعد أن كان التعليم بدائيًا وتقليديًا غير مبال به من قبل المجتمع، تعالت دعوات علماء الإصلاح بمزاب وعلى رأسهم الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر بضرورة الاعتناء بتعليم الناشئة، ونُصرة اللّغة العربية بمنع الحديث باللهجة المازيغية المزابية في المدرسة، وإعداد الفتيات بتعليمهن أصول اللغة العربية وما يجب عليهن من أمور دينهن بالإضافة إلى إكسابهن بعض الصنائع والحرف المنزلية لمساعدة أزواجهن في تحمّل الأعباء المعيشية، وتحضيرهن للقيام بوظيفتهن الفطرية المتمثلة في رعاية البيت الزوجي، وتربية الأجيال[43].

واستطاع بذلك المزابيون إحداث إصلاحٍ تربوي تعليمي جذريٍ بالاستمرار في فتح الأعداد المعتبر من المدارس والمعاهد في أغلب القرى المزابية، وحرصهم على تطوير برامجها ومناهجها بعد استفادتهم من التجارب المماثلة التونسية والمصرية والجزائرية، واهتمامهم الخاص بتعليم البنت والمرأة، والإسهام في التقليص الواضح لنسب الأميّة في المجتمع المزابي[44]، حتى أسهمت هذه التنشئة في المدرسة القرآنية بمزاب في إتقان الناشئ المزابي للغة الضاد، وأحدثت فيه تلك القابلية للتجاوب السريع مع محاوريه، وسهّلت له عملية الاندماج المحلي والوطني، وفتحت المجال لمشاركة المزابيين إخوانهم الجزائريين بالعمل جنبا إلى جنب والمساهمة بالرأي والموقف في مختلف القضايا الوطنية، وحرّكت عجلة التأليف بلغة الضاد[45]، غير أنّها قد ركزت حينها على محورية شخصيتها القيادية "الشيخ بيوض" حيث كان رمزها وإمامها وقدوتها وزعيمها وناطقها الرّسمي، ولا يمكن تفسير ذلك إلا من منطلق محاولة الانسجام مع ظاهرة بروز الفكر الزعامي في العالم العربي والإسلامي، كما قد يعبّر ذلك عن توافق أفكار الشيخ مع رغبة المزابيين في الانفتاح على الثقافات الأخرى، وقابليتهم للتعايش اللغوي مع لغة القرآن الكريم، ولا أدّل على ذلك تضمن المناهج التعليمية لكلّ المدارس الدّينية الحرّة في مزاب مادّة اللّغة العربية وبمعاملٍ عالٍ في كلّ المراحل التّعليمية، وإدراج اللهجة المازيغية المزابية جنبًا إلى جنب مع اللّغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية في الطّورين المتوسط والثانوي، ولا أدلّ على هذا التعايش اللغوي عدم شهود منطقة مزاب أي خطاب مطلبي لغوي يُذكر في تاريخها.

5. 3 التنشئة في المحلات التجارية: لقد كان لتزايد عدد السكان في منطقة مزاب، وشح موارد العيش في المنطقة بضعف المردود الفلاحي دورًا أساسيًا في إجبار المزابيين على السّفر إلى مدن التّل الجزائري، فكانت البداية على شكل رحلات مؤقتة بالقوافل نحو مدن الشرق الجزائري خاصّة، لجلب بعض البضائع إلى الأسواق المحلية، قبل أن يستقر بعضهم لمزاولة التجارة في مدن التل، فكانت تجارتهم تتم في الإطار الأسري في بادئ الأمر قبل أن تتوسع، وقد امتلك المزابيون تقنيات التّجارة في فترة وجيزة، إذ لم يكن

يهمهم جني الأرباح الطائلة بقدر اهتمامهم بتعلّم تقنيات الشراء والبيع وأساسيات المحاسبة[46]، ويبدو أنّ المزابيين قد حققوا نجاحات باهرة في هذا المجال فنافسوا اليهود والفرنسيين بانتقالهم التّدريجي من تجارة التجزئة إلى الجملة ثم الاستيراد والتصدير الذي كان حكرًا على اليهود[47].

ومن شأن هذا التحوّل الاقتصادي التّدريجي أن يجعل هذا المجتمع مبنيًا على الدّيناميكية التّجارية، وتزداد ظاهرة الهجرة من مزاب لأجل التجارة انتشارًا، حتى يذكر بورديو(Bourdieu)أنّ ثلث 1/3 السّكان الذكور كانوا يعيشون خارج مزاب[48]، ويغيب بذلك المزابي عن أهله ومنطقته لمدّة طويلة قد تتجاوز الثماني سنوات متصلة معانيًا من مشقة العمل المُضني وظروف المعيشة القاسية، وكساد السّلع وتراكم الدّيون واستغلال اليهود لأي إعلانٍ عن الإفلاس لأجل التّدخل لجدولة ديون التاجر بإضافة الفوائد الرّبوية، فيفضل التاجر المزابي في هذه الحالة عدم إعلان إفلاسه على الخوض في المعاملات الرّبوية، التي تعرضه للزجر والتّهميش في مجتمعه، وعدم قبول صدقاته وتبرعاته[49]، ويتناوب الإخوة أو الشركاء بين العمل التّجاري في مدن الشّمال والعناية بالموارد الفلاحية في مزاب، «المزابي لا يعرف الرّاحة والخمول، بل يغيّر شقاوة التجارة بأعمال الفلاحة»[50].

ومن الطبيعي حينها أن تتحول المحلات والمتاجر إلى مؤسسات تنشئوية أساسية، تسهم بشكل ينافس الأسرة في إعداد الفرد المزابي وتشكيل شخصيته، خاصةً وإن علمنا أنّ الولد يظل مع أمه إلى أن يبلغ أربع أو خمس سنوات، فيقوم رب الأسرة بفعلٍ تصفه غواشون بنادر الحدوث في المجتمعات الأخرى، حيث يأخذ معه ابنه إلى مقر عمله بإحدى مدن الشّمال[51] أو يبعثه للعمل في إحدى المتاجر بتلك المدن[52]، وبانتقاله يتعلّم في إحدى مدارس تلك المدن، وفي الآن ذاته يتعلم أبجديات التجارة في فترات الرّاحة، ويقتضي هذا التعلّم التدرج في الوظائف؛ بحيث عليه أن يتقن أولًا الطبخ وكل عمليات التنظيف، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ترتيب البضائع والتعرّف عليها، ويلزمه صاحب المحل بملاحظة كيفية التعامل مع الزبون دون أن يقوم بذلك لفترة زمنية قد تطول لكي يكتسب بذلك مختلف المهارات والتقنيات المطلوبة، وفي الآن ذاته يعرّضه صاحب المحل لمواقف عديدة يختبر بها مكتسباته وإن نجح في ذلك مكّنه من الوصول إلى مرحلة التكفل بالزبون.

ومن شروط الوصول إلى هذه المرحلة الالتزام بعدم الحديث باللّهجة المازيغية المزابية في الدّكان طيلة فترة العمل، لأنّ الحديث بلسان لا يفهمه الآخر يُعتبر من قلة اللباقة والأدب، وبالمقابل على المزابي إتقان لغة الزبون، لذلك يتعلّم المزابيون مختلف اللهجات العربية في أي منطقة من مناطق الوطن، من منظور أنّ التعدد اللّغوي هو إغناء للثقافات، وتعزيز لقدرات الفرد التّواصلية، واكتساب للأبعاد الإنسانية، وإطلاقٌ لعنان وآفاق الإبداع المنتج.

6. خاتمة: لقد استهدفت السياسة الاستعمارية الفرنسية بوضوح استئصال الهوية الوطنية بمحاربة لغة الجزائريين بإقصائها بيداغوجيًا والحط من شأنها ثقافيًا، وتشجيع ذلك الجدل المفتعل والصّراع العقيم بين اللّغة العربية والأمازيغية والذي يُراد له أن لا ينتهي.

وقد بيّن هذا المقال إمكانية التعايش اللّغوي بين لغات ولهجات الجزائريين، وكيف استطاع المزابيون تفادي إقحام المسالة اللّغوية وتعددها في دوائر الجعجعة الفارغة واللامتناهية للحشد الأيديولوجي الاستقطابات والمزايدات السياسيّة، وبيّنوا بالمقابل تلك الصّلة التلازمية والعضوية بين لغات ولهجات الجزائريين، بحيث لا يمكن الحديث عن إحداها دون استحضار الأخرى.

ولن تستطيع الجزائر تجاوز مخلفات الحقبة الاستعمارية وامتداداتها إلا بالإشادة بمثل هذه النماذج الواقعية التي برهنت على تعايشها اللّغوي الذي يحمل دلالات تلاحم المجتمع، ومعاني توحّد أطره المرجعية والفكرية والأيديولوجية، وتماسك مكونات هويته، لذلك فإنّ الانفتاح اللغوي والثقافي الذي تعرفه الجزائر حاليًا لا يمكن اعتباره سوى مكسبا حضاريًا نفتخر به جميعًا، ويكون منطلقًا أساسيًا في معالجة قضايا أخرى تمس الوضع اللغوي والمواطنة اللغوية والتدبير المؤسساتي للتعدد اللغوي بالجزائر.

7. قائمة المراجع:

المؤلفات:

- إبراهيم مدكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية،(الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1985).
- ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 7،(دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1981).
- أبوبكر صالح، القرارة من دخول الاستعمار الفرنسي إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى 1882-1921، (نشر جمعية التراث، الجزائر، 2015).
- الحاج أيوب إبراهيم بن يحي، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب، تح: يحي بن بهون حاج أمحمد،(نشر جمعية النهضة، الجزائر، 2009).
- الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية،(المطبعة العربية، ط2 الجزائر، 2006).

- العربي إسماعيل، التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المغرب،(الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1974).
- بلعيد صالح، في الأمن اللغوي،(دار هومة، الجزائر، 2010).
- بلعيد صالح، المازيغية في خطر،(منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، الجزائر، 2011).
- دبوز محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج01،(المطبعة التعاونية، دمشق، 1965).
- دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، تر: إحسان محمد الحسن،) دار الطليعة، ط02، بيروت 1986).
- شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، منذ البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة،(مؤسسة توالت الثقافية، ط1، 2011).
- رشيد الناظوري، المغرب الكبير، ج01،(الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، 1966).
- متياز إبراهيم، تاريخ مزاب، مخطوط، موجود بمكتبة آل متياز، بني يزقن.
- غابريا كامبس، في أصول بلاد البربر: ماسينيسا أو بدايات التاريخ، تر: العربي عقون،(منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية، ط2، الجزائر، 2012).
- عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات: من الحداثة إلى العولمة، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006).
- طلاي إبراهيم محمد، مزاب بلد كفاح: دراسة تاريخية اجتماعية، (د.ن، ط02، الجزائر، 2013).
- معروف بالحاج، العمارة الإسلامية: مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية،) دار قرطبة، الجزائر، 2007).
- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، تر: عبد الإله الملاح،) المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001).
- Amelie Marie Goichon, La vie Féminine au MZAB: étude de sociologie musulmane, tome 01,(Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1927).
- Madeleine Grawitz, Lexique des sciences sociales, édition DALLOZ,(8e éd, Paris,2004).

- Bourdieu Pierre, La sociologie de l'Algérie,(EPF, Alger, 1967).
- Coyne.A, Le M'Zab, in: La revue Africaine, (Adolphe Jourdan, Alger, 1879).
- R. Capot-Rey, Glossaire des principaux termes géographiques et hydrologiques sahariens, Institut de recherches sahariennes,(Université d'Alger, Alger, 1963).
- Ville, Exploration Géologique du Beni- M'Zab du Sahara et de la région des steppes de la province d'Alger ,(Imprimerie nationale, Paris, 1872).
- Marcel Mercier, La civilisation urbaine au M'zab : Ghardaïa la mystérieuse, (éd PAG Soubiron, Alger, 1932).
- Direction de la Programmation et du Suivi Budgétaires, Annuaire Statistique de la Wilaya de Ghardaïa, (édition 2011).
- H.J.Hugot, Le sahara avant le désert, (éd des Héspérides, 1974).
- Roffo Pierre, Contribution à l'étude de la préhistorique du Sahara,(septentrional, Ancienne Imprimerie, 1934, Alger).
- Joël Abonneau, Préhistoire du M'zab, (thèse de doctorat 3e cycle en archéologie, Sorbonne, Paris, 1983).

8. هوامش:

1- دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، تر: إحسان محمد الحسن، (دار الطليعة، ط02، بيروت، 1986)، ص225.

2- See: Madeleine Grawitz, Lexique des sciences sociales, (édition DALLOZ, 8e éd, Paris,2004), p377.

3- عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات: من الحداثة إلى العولمة، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006)، ص39.

4- بلعيد صالح، في الأمن اللغوي، (دار هومة، الجزائر، 2010)، ص224.

5- العربي إسماعيل، التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المغرب، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974)، ص39.

6- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط،) مكتبة الشروق الدولية، ط04، القاهرة، 2004)، ص639.

7- إبراهيم مدكور وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية،) الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1985)، ص554.

8- بلعيد صالح، المازيغية في خطر، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، الجزائر، 2011، ص136.

9- See: Coyne.A, Le M'Zab, in: La revue Africaine, (Adolphe Jourdan, Alger, 1879), p172.

10- See: R. Capot-Rey, Glossaire des principaux termes géographiques et hydrologiques sahariens, Institut de recherches sahariennes, (Université d'Alger, Alger, 1963), p29.

11- Ville, Exploration Géologique du Beni- M'Zab du Sahara et de la région des steppes de la province d'Alger, (Imprimerie nationale, Paris, 1872), p58.

12- R. Capot-Rey, Op.cit, p29.

13- A. Coyne, Op.cit, p05.

14- Ibid, p12.

15- Marcel Mercier, La civilisation urbaine au M'zab: Ghardaïa la mystérieuse, (éd PAG Soubiron, Alger, 1932), p38.

16- Direction de la Programmation et du Suivi Budgétaires, Annuaire Statistique de la Wilaya de Ghardaïa, édition 2011, p12.

17- شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، منذ البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، مؤسسة توالت الثقافية، ط1، 2011، ص30.

18- H.J.Hugot, Le sahara avant le désert, (éd des Héspérides, 1974), p83.

19- Marcel Mercier, Op.cit, p40.

20- Roffo Pierre, Contribution à l'étude de la préhistorique du Sahara, (septentrional, Ancienne Imprimerie, 1934), Alger.

21- Joël Abonneau, Préhistoire du M'zab, (thèse de doctorat 3e cycle en archéologie, Sorbonne, Paris), 1983.

22- رشيد الناظوري، المغرب الكبير، ج01،) الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، 1966)، ص124.

23- شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص46.

24- متياز إبراهيم، تاريخ مزاب، مخطوط، موجود بمكتبة آل متياز، بني يزقن، ص04.

25- غابريال كامبس، في أصول بلاد البربر: ماسينيسا أو بدايات التاريخ، تر: العربي عقون،) منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية، ط2، الجزائر، 2012)، ص287.

26- Gautier E, Le passé de l'Afrique du nord, (Les siècles obscurs, Paris, 1934), pp48-51.

27- Pinta.P, Libye:des cites antiques aux oasis du Sahara, (Olizana, Genève, 2007), p46.

28- معروف بالحاج، العمارة الإسلامية: مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية،) دار قرطبة، الجزائر، 2007)، ص42.

29- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، تر: عبد الإله الملاح،) المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001)، ص364.

30- شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص110.

31- الحاج أيوب إبراهيم بن يحي، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب، تح: يحي بن بهون حاج أمحمد،) نشر جمعية النهضة، الجزائر، 2009)، ص21.

32- (المؤلف مجهول)، مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية،) دار أبي قراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2005)، ص98.

33- متياز إبراهيم، مرجع سابق، ص06.

34- ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 7، مرجع سابق، ص123، 128، 129.

35- الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية،) المطبعة العربية، ط2، الجزائر، 2006)، ص07.

36- طلاي إبراهيم محمد، مزاب بلد كفاح: دراسة تاريخية اجتماعية، (د.ن، ط02، الجزائر، 2013)، ص15.

37- Amelie Marie Goichon, La vie Féminine au MZAB: étude de sociologie musulmane, tome 01, (Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1927), p276-309.

38- الحاج سعيد يوسف بن بكير، مرجع سابق، ص12.

39- نفسه، ص36.

40- أبوبكر صالح، القرارة من دخول الاستعمار الفرنسي إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى 1882-1921،) نشر جمعية التراث، الجزائر، 2015)، ص210.

41- الشيخ بالحاج قاسم، معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر،)(شر جمعية التراث، غرداية (الجزائر) 2011(،ص310- 311.

42- ولد خليفة محمد العربي، الجزائر المفكرة والتاريخية: أبعادٌ ومعالم،) دار الأمة، الجزائر، 1998)، ص300.

43- الشيخ بالحاج قاسم، مرجع سابق، ص556.

44- المرجع نفسه، ص602.

45- قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، مرجع سابق، ص117.

46- Bourdieu Pierre, La sociologie de l'Algérie, (EPF, Alger, 1967), p45-46.

47- دبوز محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج01، (المطبعة التعاونية، دمشق، 1965)،ص188.

48- Bourdieu Pierre, Sociologie de l'Algérie, Op.cit, p37.

49- أبو بكر صالح، مرجع سابق، ص445.

50- المرجع نفسه، ص446.

51- Goichon, Op.cit, Tome 01, p54.

52- أبو بكر صالح، مرجع سابق، ص444.